

## الفصل الثالث

مذهب سان سيمون  
في ميدان التطبيق



## نشأة المدرسة السان سيمونية

لا يمكننا ، ونحن بصدد الحديث عن سان سيمون وفلسفته ، أن لا نتعرض بجانب هام من جوانب هذه الفلسفة ، وهي محاولة تطبيقها تطبيقاً عملياً في الشرق العربي عامة وفي مصر بوجه خاص .

ففي اليوم التاسع عشر من مايو عام ١٨٢٥ مات سان سيمون ، وقد أحاط به جمع من أتباعه وتلاميذه المخلصين ، الذين آلوا على أنفسهم حمل رسالة أستاذهم الراحل من بعده . من بين هؤلاء يمكننا أن نذكر أوليند رودريجيه Rodrigue وليون هالفي Halevy والدكتور باي Dr. Bailly والمشرع ديفرجيه Duvergier .

وفي اليوم التالي لوفاة سان سيمون انضم إلى الأتباع مهندس استهوتة فلسفة الزعيم الراحل ، هو بارتلمى بروسبر أنفانتان B.P. Enfantin الذي يرجع إليه فضل توحيد أتباع سان سيمون في مدرسة واحدة زهاء ربع قرن من الزمان ، والذي تعرض لمحن قاسية نتيجة إخلاصه وتحمسه في تنفيذ مبادئ سان سيمون أو « رسول الإنسانية » كما كان يحلو لأنفانتان أن يسميه<sup>(١)</sup> .

وقد كانت مدرسة الهندسة العسكرية بباريس هي المعمل الذي تخرج فيه عدد كبير من أتباع سان سيمون . فمن هذه المدرسة تخرج « هوار » Hoart و « شارل لامبير » Lambert و « ديشارم » Decharmes و « هنري فورنل » Henri Fournel و « بركس » Prax و « برينو » Bruneau و « أبل ترانسون » Abel Transon و « جازيه » Gazeux و « ميشيل شفالبيه » Michel Chevalier وغيرهم من الأتباع .

(١) Charréty : Histoire de Saint-Simonisme, Paris, Hartman, 1931, p. 26.

كرس هؤلاء الأتباع جهدهم ، وبدلوا وقتهم ، وأنفقوا مالهم ، لإحياء دعوة سان سيمون متمثلة في مبادئه السياسية وفي فلسفته الاجتماعية التي لم يتمكن من تحقيقها في حياته. وكان أول عمل لم هو إصدار صحيفة « المنتج » Le Producteur جريدة فلسفية للصناعة والعلوم والفنون في أواخر عام ١٨٢٥ . ولكن خلافاً دب بين أنفانتان وبازار Bazard أحد الزعماء المخلصين للمدرسة السان سيمونية ، فتوقفت الصحيفة عن الصدور .

وفي عام ١٨٢٧ أحس أتباع سان سيمون بضرورة تنظيم دعوتهم — بعد أن توقفت مجلّتهم عن الصدور — فاتفقوا على إلقاء محاضرات منتظمة للتعريف بالمذهب الاجتماعي للمدرسة السان سيمونية . وكانت الفترة من عام ١٨٢٨ إلى عام ١٨٣٠ حافلة بالمؤتمرات ، زاخرة بالمحاضرات التي نظمتها الأتباع لعرض فلسفتهم الاجتماعية .

ويذهب جورج جورفيتش ، أستاذ علم الاجتماع بجامعة السوربون ، إلى تأكيد أن ماركس قد تأثر كثيراً بأراء سان سيمون التي عرضها أتباعه في عام ١٨٢٩ — ١٨٣٠<sup>(١)</sup> بل إن الشاعر الألماني الكبير « هن » Heine الذي هاجر إلى فرنسا عام ١٨٣٠ قد أصبح منذ عام ١٨٣١ في عداد المستمعين المخلصين لأتباع سان سيمون ، وأصبحت صلته ببازار وأنفانتان وثيقة لدرجة أنه صدر الطبعة الأولى من كتابه المعروف « من ألمانيا » de l'Allemagne بإهداء إلى الأب أنفانتان .

ويظهر لنا كيف تأثر ماركس بسان سيمون إذا عرفنا أن « هن » قد سبق ماركس في الهجرة من ألمانيا بخمسة عشر عاماً ، وأن ماركس لم يصل إلى باريس إلا في عام ١٨٤٤ حيث كان « هن » يتردد على صديقه ماركس بصفة مستمرة ، وكان مرشده وصديقه الشخصي في العاصمة الفرنسية ، فهو الذي عرفه باتباع سان سيمون ، وجعله على صلة وثيقة بهم<sup>(٢)</sup> .

G. Gurvitch : Saint-Simon Sociologue. Paris, C.D.U., 1955 p. 24. (١)

Chartéty : op. cit., p. 78. (٢)

وفي عام ١٨٢٩ وقع اختيار أتباع سان سيمون على كل من أنفانتان وبازار كآباء لأسرهم ثم استقر رأيهم على إنشاء كنيسة سان سيمونية تقوم بالدعوة للمذهب السان سيموني أطلق عليها كنيسة شارع مونسييني Eglise de la rue Monsigny واختار الأتباع أنفانتان وبازار باباوات للكنيسة الجديدة .

وقد انضم إلى الجماعة في ذلك الوقت كاتب حر يدعى « بيير لرو » Pierre Leroux صاحب جريدة العالم Globe فأوقف جريدته على الدعوة للمذهب سان سيمون<sup>(١)</sup> .

وبالرغم من أن الخلاف الذي بدأ بين بازار وأنفانتان في مسهل عام ١٨٢٦ ، وبدا أنه قد انتهى بتوقف صدور مجلة « المنتج » ، لم يتلاشى نهائياً - رغم جهود الأتباع والمخلصين - فاشتد الصراع مرة أخرى بشكل سافر بين زعيمى مدرسة سان سيمون وانتهى باعتزال بازار لمهمته كأب للكنيسة السان سيمونية في نوفمبر عام ١٨٣١ حيث وافته المنية في يولية من العام التالى .

وقد كان خروج بازار نديراً بتصدع في صفوف المدرسة ، إذ أعقب اعتزاله خروج « بيير لرو » و « كارنو » Carnot و « لشفالييه » Lechevalier وأوليند رودريج ، واحتجاب جريدة العالم عن الصدور . وأصبح أنفانتان هو الأب الوحيد للكنيسة السان سيمونية واتخذ شعاراً له : « إن حياتى الدينية تهدف إلى أن أعيش من أجلكم ومن أجل نفسى ، بنفسى وبكم ، فى ذاتى وفى داخل نفوسكم<sup>(٢)</sup> » .

وعلى رهوة عالية فى أحد أحياء باريس تدعى « منيلمونتان » Menilmontant قاد أنفانتان أتباع سان سيمون منذ بدايه عام ١٨٣٢ إلى حياة صوفية روحانية ، حيث عاشوا بعيدين عن أنوار باريس ومباهجها ، يقومون بخدمة أنفسهم بأنفسهم ، وكانت خبرتهم هذه سبباً فى اتجاههم نحو فكرة « إلغاء نظام

(١) نفس المرجع السابق . ص : ٦١ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٧٢ .

الخدم « L'Abolition de la domesticité » واستطاع الأتباع وهم في منيلمونتان أن يجربوا فكرة « الحياة الجمعية » وإمكان قيام « وحدة عالمية » ، وزعوا في تفكيرهم نزعاً روحية ، واعتقدوا أن في إمكانهم نشر دعوتهم بإثارة المشاعر واستهواء النفوس ، فوضعوا الأناشيد التي تهب المشاعر وتثير حماس الجماهير . وبالرغم من خلو هذه الأناشيد من أية نزعاً عدوانية فقد تعرضوا لصنوف من الإيذاء من جانب البوليس ورجال الجيش ، وقدموا إلى محكمة السن بتهمة تشويه التقيم الأخلاقية . وقد تمحضت المحاكمات عن سجن الأب أنفانتان وميشيل شثاليه في ١٥ ديسمبر عام ١٨٣٢ مما أدى إلى تشتت شمل الأتباع ومغادرتهم لريوة منيلمونتان .

وبين جلدان سجن « سان بلاجي » Saint-Pélagie ، حيث كان يقضى الأب أنفانتان فترة العقوبة المحكوم بها عليه ، انبثقت فكرة الرحيل إلى الشرق ، لجمع شمل الأتباع من جانب ومحاولة تطبيق المذهب الاجتماعي للمدرسة السان سيمونية من جانب آخر . كان حلم أنفانتان أن يجد المكان الملائم للتطبيق العملي للفلسفة الاجتماعية التي اعتنقها ، والتي أصبح الأب الروحي لها . وفي مذكراته الخاصة يقول : « الشرق ! تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء والغموض ، الشرق الغامض غموض الصحراء ، الشرق معناه مصر . . . مصر الساحرة . أرض فرعون وموسى ، أرض النيل . . . وما أدراك ما هي (١) » .

ولم يكن تعلق أنفانتان بالشرق وغموضه وبمصر وسحرها ، مسaire منه للاتجاه الذي ساد في عصره ، وإنما كان الشرق – بالنسبة لأنفانتان – ذا مظهرين ، أحدهما أخلاقي والآخر سياسي . وكان يعتقد أن الجانب الأخلاقي في الشرق أقوى وأوضح منه في الغرب ، ولهذا كان يرى ضرورة استغلال هذه الطبيعة الخيرة وربطها بالغرب برباط قوى يدفع بالإنسانية

إلى الوحدة والتماسك<sup>(١)</sup> .

وفي اليوم الذي غادر فيه أنفانتان سجن سان بلاجي ، كتب في مذكراته الخاصة مخاطباً مصر الساحرة يقول : « غادرت سجنى فى الغرب وسأضع نفسي فى خدمتك<sup>(٢)</sup> » .

أراد أنفانتان أن يجعل من الرحيل إلى مصر تطبيقاً عملياً للمذهب الاجتماعى للمدرسة سان سيمونية ، وعلى الأخص تحقيق فكرة الإنسانية العالمية — التى كان يحلم بها سان سيمون ولم يقدر لها أن يحققها فى حياته — فصمم على أن يشد الأتباع رحالهم لشق قناة السويس . وفى هذا يقول أنفانتان : « إن السويس هى ميدان العمل بالنسبة لنا ، هناك سوف نحقق ما ينتظره العالم لكى يعترف بأننا رجال حقاً<sup>(٣)</sup> » ويضيف إلى ذلك قائلاً : « إننا لسنا رجالا يطالبون بملايين الجنيهات ، كما هو حال المهندسين الإنجليز ، إننا على العكس عمال يعيشون على الكفاف . إن كل هدفنا أن يصبح هذا العمل العالمى حقاً ميداناً للحماس والتضحية لا يتقل مجال عن ميدان القتال ، وأن النصر يجب أن يكون حليفنا نحن جنود السلام<sup>(٤)</sup> » .

ولكن الرحيل إلى الشرق لم يتم فى سلام ، فقد أراد الأتباع أن يجيروا بدعوتهم ، وأن يكسبوا أنصاراً لفكرتهم ، فغادروا باريس فى أول يناير عام ١٨٣٣ متشرين فى جميع مقاطعات فرنسا ومدنها وتعرضوا للإيذاء واضطهاد البوليس والبلشيس . وبالرغم من ذلك فقد رحل إلى مصر خمسة وخمسون عضواً من الأتباع يمثلون كافة الحرف والمهن والفنون والصناعات<sup>(٥)</sup> .

Cizariéty : op. cit., p. 219. (١)

Oeuvres de Saint-Simon et d'Enfantin T. IX, p. 109. (٢)

(٣) نفس المرجع السابق . ص : ٦٤ .

(٤) نفس المرجع السابق . ص : ١٠٩ .

(٥) أورد أنفانتان بياناً بأتباع سان سيمون الذين جاؤا إلى مصر حتى عام ١٨٤٥ وهم كالتالى

بحسب مهنتهم وحرفهم :

مهندسون : هوار ، HOART ، لامير ، LAMBERT ، برينو ، BRUNEAU

فورتل ، FOURNEL ، براكس ، PRAX ، توريه ، TRNEUX

وقد كان لهذه الحملة السان سيمونية على مصر آثار واضحة في تطبيق أركان مذهبهم الاجتماعي وعلى الأخص فكرة العمل الصناعي المنتج واستخدام الموسيقى والأنشيد كدعامة للعمل الاجتماعي التعاوني واستخدام الفن والألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والاجتماعي إلى جانب محاولاتهم المتكررة لشق قناة السويس (١) .

ومن المهم أن نتعرف على أركان الفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية التي أقامها أتباع سان سيمون من بعده، وإلى أي حد تتفق فلسفتهم مع الخطوط الرئيسية لمنشئ المذهب السان سيموني في ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

- 
- دشارم DECHARME ، لينان LINANT ، لامي LAMY  
 دروو DROUOT
- أطباء : برون PERRON ، فوركاد FOURGADE ، ريجو RIGAUD  
 دلون DELON ، شاربين CHARBIN ، كونيَا COGNIAT  
 لاشيز LAGHEZE ، چالا JALLAT ، لوتور LAUTOUR  
 زراعيون : أوليفيه OLLIVIER ، بوسكودي دمبال BUSCO DE DOMBASLE  
 ألكسى بتي ALEXIS PETIT
- كيميائون : چافارى JAVARY ، جوندريه GONDRET ، لفر LEFEVRE  
 (إخصائى معادن)
- رسامون ومثالون : ماشرو MACHEREAU ، أشار ACHARD ، أريك ALRIC  
 تجار : ريبول REBOUL ، توشيه TOCHE ، چنيفوا GENEVOIS  
 سوزال SONNERAL ، مارتان MARTIN ، برزار BERNARD  
 محررون وأدباء : بارو HARRAULT ، أربان ÛRBAIN ، ديجيه DUGUET  
 جرانال GRANAL ، كولان COLLIN ، نويل NOEL  
 مارشال MARECHAL ، ماسول MASSOL ، چانان JANIN
- عمال : ديمولار DUMOLARD (حداد) ، ألكندر ALEXANDRE (ميكانيكى)  
 مهن أخرى : روجيه ROGE ، فليسيان دافيد DAVID ، بليشون PLICHON  
 جرانال الصغير (jeune) GRANAL ، دافسوس DAVESUS ، فران FERRAND  
 كوب COMBES ، تاميسيه TAMISIER ، هولشتين HOLSTEIN
- (١) راجع وثائق هذه المرحلة في رسالتنا للدكتوراه بعنوان « أتباع سان سيمون ، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر » . التي تقرر طبعها على نفقة جامعة القاهرة وتبادلها مع جامعات العالم .

## الفلسفة الاجتماعية لأتباع سان سيمون

إذا تتبعنا عرض أتباع سان سيمون لمذهب أستاذهم فيما أسماه: "L'exposé de la doctrine"، نجد أن العرض الذي قام به الأتباع يتميز عن فكرة سان سيمون نفسه من عدة نواحي<sup>(1)</sup>:

أولاً : قاموا بصبغ مذهب سان سيمون وآرائه الفلسفية بصبغة الحتمية ، واعتبروها لازمة التحقيق لا محالة .

ثانياً : حرصوا على أن يبرزوا في وضوح ما هنالك من علاقة بين التجمع والتنافر وركزوا اهتمامهم على عنصر التشابك والصراع في العصر الحاضر .

ثالثاً : أكدوا وجود التركيز الصناعي ، وأبدوا فكرة تجمع وسائل الإنتاج في المجتمع الحديث .

رابعاً : وجهوا النظر إلى ضرورة وجود عنصر السلطة القوية في التنظيم الصناعي ، ولكنهم لم يوضحوا مسألة تكوين طبقة المنتجين .

خامساً : تخلوا عن فكرة أستاذهم في ضرورة زوال الدولة في المجتمع ، وأصبحوا من أشد أنصار قيام الدولة كأساس للتنظيم الاجتماعي .

سادساً : خصوا فكرة « الطاعة عن طريق الحب » بأهمية عظيمة ، مما أضنى على دعوتهم طابعاً دينياً خاصاً. فهم ينادون بضرورة زوال استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وبالتالي تقدم الأعمال العلمية ؛ بمعنى أن يكون استغلال وسائل الإنتاج في العالم عن طريق التقدم الصناعي وحده .

يقول أتباع سان سيمون في نداء لهم :

« أيها السادة والعبيد ، أيها النبلاء والسوقة ، أيها الأشراف والأنباع ،

Georges GURVITCH : Saint-Simon Sociologue.

(1)

Paris, G.D.U., 1955, p. : 15.

أيها الملاك والمزارعون : المتجون منكم وغير المتجين ، إن الإنسان لا يزال حتى الآن يستغل أخاه الإنسان . . . لهذا وجب قيام اتحاد عالمي يمنح كل شخص حسب قدراته ، ويعطى كل قدرة حسب نوعها ؛ وهكذا لا يستغل الإنسان أخاه الإنسان ، بل يتحد الجميع لاستغلال العالم الذي يصبح طوع إرادتهم<sup>(١)</sup> .

ويلاحظ أن نشاط أتباع سان سيمون لم يكن محصوراً في نطاق علم الاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ ، بل امتد إلى فلسفة التاريخ بالذات . وفكرهم عن فلسفة التاريخ ترتكز على الاعتقاد في توافق العصور التنظيمية *Les époques organiques* والعصور النقدية *Les époques critiques* . فالأولى تتميز بوجود نظام طبقى . ونوع من التفاني وإيمان بالله . في حين أن الثانية تتميز بالتوضى والأناثية وعدم الاعتقاد في الله . وفي هذه العصور النقدية يكون الصراع على أشده ، مما يدعو إلى ظهور الاتحاد القائم على الصناعة لوضع حد له<sup>(٢)</sup> .

وقد نتساءل - في مثل هذه الملاحظات - عما إذا كان من المحتمل ظهور عصر نقدي مرة أخرى ؟ ومع أن أحداً لم يتصد للإجابة على هذا السؤال ، إلا أنه ليس في وسعنا أن نتصور أن يكون الرد بالإيجاب إذا كان استغلال الإنسان لأخيه الإنسان سيحل محله المجهود الجمعي لاستغلال الطبيعة . وإذا تصورنا انعدام الصراع وحلول الوحدة العالمية محل هذا الصراع بغية وقاية الجنس البشري روحياً وعقلياً وعضوياً .

وتتخفظ الوحدة الذي تقوم عليه فلسفة التاريخ عند أتباع سان سيمون هو عنصر الجبرية الذي لا حول للإنسان أمامه ولا قوة؛ فهم يتساءلون : إذا كان يوجد في تسلسل الظروف نوع من الصرامة يجعل حوادث المستقبل نتيجة ضرورية لأحداث الماضي ، فهل يخضع الجنس البشري نتيجة لذلك إلى قانون

(١) Exposé de la doctrine. (Ed. Bouglé p : 94..)

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٨٩ .

الجبر والإلزام ؟ ؛ ثم يردون على ذلك قائلين : « إن هذا ممكن إذا تيسر للإنسان أن يتغاضى كليه عن رغباته وآماله وأن يستقن من ماضيه خيوط مستقبله ؛ ولكن إنساناً كهذا لم يخلق بعد ، فالجميع يظهر قديراً من العاطفة نحو مجتمعهم ، والجميع يتطلعون بارتياح إلى المستقبل مهما كانت ظروف الماضي . »  
وهنا يتدخل عنصر من التلقائية والحرية لا يمكن تعميمه مع عنصر الجبرية إلا عند إثارة موضوع التعاون الروحي بين الإنسان ونخالقه ؛ « فن وجهة النظر الدينية يظهر نوع من النشاط المملوء بالثقة والحب ، لأنه كلما كان الإنسان متبهاً إلى مصيره المحتوم اتجه في أفعاله وجهة تتفق مع أوامر الله وإلى تحقيقها ... فكلما تأكد من وجهته سدد آماله نحوها وأصبح هذا الاتجاه تلقائياً . فهو يعرف قبل أن يأتي أى فعل النتائج العامة التى ستترتب على فعله ، ويستخدم لذلك كافة ملكاته وقواه العقلية . وهكذا يصبح حراً وواعياً لمصيره الذى يمكنه أن يحوله إذا أراد وجهة أخرى أو يعجل بتحقيقه وفقاً للظروف<sup>(١)</sup> . »

هذا الموقف من أتباع سان سيمون ينبيء بإدخالهم العنصر الدينى فى مذهب أستاذهم ، ولم يكن ذلك واضحاً فى الاتجاه الإنسانى التحررى فى آراء سان سيمون نفسه .

• • •

وأهم سمة فى تفكير أتباع سان سيمون هو تحليلهم للتحويل التدريجى للملكية . « فهذه الكلمة الضخمة التى نسميها الملكية كانت تعبر فى كل مرحلة من مراحل التاريخ عن معانى مختلفة وأفكار متباينة » ومع ذلك فيمكن تعريف الملكية بأنها « حق استخدام أدوات للعمل أو للثروة لا يتجه مباشرة نحو الاستهلاك ، ويمكن الحصول على دخل منها أو ما يعبر عنه رجال الاقتصاد بجوهر الإنتاج<sup>(٢)</sup> » .

(١) نفس المرجع السابق : ص : ١٧٧ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٢١٤ .

ففي المجتمع الذي تلغى فيه كل ميزة ترجع إلى الوراثة ، يرمز انتقال الملكية عن طريق الميراث إلى انتقال من العصر الإقطاعي الحربي إلى وراثة البؤس والتعاسة . فتوارث الثروات ينتهي بالسيطرة والتحكم في ملكية وسائل الإنتاج التي تؤدي إلى استغلال الطبقة العاملة . « ولا يوجد من يفكر في هذا العامل ، الذي تدفعه حالة البؤس التي يعانها إلى المذلة والحرمان التي تعد سبباً في نوع جديد من الشقاء . فهو يعيش في حلقة مفرغة تثير كل مرحلة منها الاشمئزاز والرغبة . . . هذه هي حالة أغلب العمال الذين يملكون في كافة المجتمعات الغالبية العظمى من المواطنين . فإذا كان من الضروري أن يتلاشى استغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، فإن تكوين الملكية التي هي أساس هذا الاستغلال يجب أن يتلاشى أيضاً<sup>(١)</sup> . »

ويضيف أتباع سان سيمون إلى ذلك : « إن الملكية إذن يمكن ، في مراحل مختلفة ، أن تنظم بطرق عديدة . وقد أصبح من الضروري اليوم حدوث تغير أخير في الملكية ؛ وهذا يحدث أساساً نتيجة لفكرة تبعية وسائل الإنتاج للدولة ونتيجة لإلغاء حق الوراثة الفردية . »

لم يكن سان سيمون صريحاً وواضحاً في آرائه في هذه المسألة بالذات ، ولهذا فإن أتباعه حاولوا في عرض مذهب أستاذهم تأكيد « أن القوة هي - إلى يومنا هذا - الرمز الوحيد للملكية ، ولكن هذا الرمز سوف يقوم في المستقبل على العمل والإنتاج » . والانتقال إلى النظام الجديد للملكية لا يمكن أن يحدث فجأة وعن طريق القوة ، ولكن ببطء وبشكل تدريجي ، لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بالعمل الحماسي المستمر وتقدير أهمية هذا التحول . والقوة الوحيدة التي يمكن الالتجاء إليها للانتقال إلى النظام الجديد للملكية هي « القوة الإنتاجية »<sup>(٢)</sup> . وينتهي أتباع سان سيمون من تحليلهم للملكية إلى التصريح الآتي :

(١) نفس المرجع السابق : ص : ٢٤٥ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص : ٣١٧ .

« عندما نحارب الملكية الناشئة عن حق الاغتصاب أو حق الوراثة ، فإننا نصارع العصور القديمة والعصور الوسطى من أجل نظام الملكية في المستقبل ؛ تلك الملكية التي سوف يحصل عليها الفرد نتيجة للعمل العلمي لا نتيجة للحرب أو للنهب والسلب ؛ تلك الملكية التي سوف يحصل عليها الفرد نتيجة لميزاته الشخصية لا نتيجة لمولده أو لعنصره . . . فحق الملكية في النظام الجديد ، تتلشى العادات والميول غير الاجتماعية التي تصبح موضعاً للامتعاض والكراهية ويحل محلها الشعور بقيمة العمل وقلبيته ويصبح التفاني والعنصرية هما المقياس الأساسى للملكية<sup>(١)</sup> » .

• • •

وبالرغم من ذلك ، فإن هذا النظام الجديد للملكية يتيح نوعاً من الطبقة الصناعية . فكل عمل صناعى خاص أو وحدة صناعية تكون في حاجة إلى تنسيق في نظامها ، وبالتالي في حاجة إلى رجال يختصون بملاحظة ذلك وإجراء التعديلات اللازمة تبعاً لظروف العمل ؛ أو بمعنى آخر في حاجة إلى رجال قادرين على تمييز العناصر الضرورية للإنتاج من العناصر غير المنتجة<sup>(٢)</sup> .

هؤلاء الرجال يكونون ما يسمى بالقيادة الصناعية Les magistrats de l'industrie فهم يمثلون حقاً سلطة استبدادية ، وإن كانت قاصرة على الناحية الفنية الإنتاجية . هؤلاء القادة الصناعيون يرى أتباع سان سيمون ضرورة تعيينهم بواسطة الدولة المالكة لوسائل الإنتاج<sup>(٣)</sup> .

ولكى تتقبل الطبقة العاملة هذا النظام وهذه السلطة الاستبدادية ، يقترح أتباع سان سيمون وسيلتين<sup>(٤)</sup> :

(١) نفس المرجع السابق : ص : ٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٣٩٥ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٣٩٧ .

(٤) نفس المرجع السابق : ص ٤٠٢ - ٤٠٦ .

الوسيلة الأولى : هى قيام نوع من التعليم المهنى والأخلاقى للعمال .  
والوسيلة الثانية : قيام ديانة جديدة تعمل على ربط الإنسان بأخيه الإنسان .  
وتفضى الوسيلة الأولى فى الواقع إلى الوسيلة الثانية ؛ لأنها تدفعنا إلى التساؤل  
عما إذا كانت الإنسانية ستعيش فى المستقبل فى ظل ديانات معينة أم ستتحلل  
نهائياً من الرابط الدينى ؟.

وقد كانت الإجابة عن هذا السؤال موضع اهتمام أتباع سان سيمون فى  
محاضراتهم الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة التى اختتموا بها سلسلة محاضراتهم  
عن عرض مذهب أستاذهم .

يقولون إن سان سيمون جاء إلى هذا العالم لكى يؤكد الترابط الطبيعى بين  
الدين والعلم . « فالفنون والعلوم والصناعة تمثل الثالوث الفلسفى الذى كشف  
عنه سان سيمون ؛ وأن الذين يقولون بوجود تعارض بين الناحية الدينية والناحية  
الميتافيزيقية والناحية الوضعية مخادعون ، لأنه فى كافة العصور كان العلم دائماً  
ذا مظهر دينى لأن كافة الاكتشافات لم تظهر إلا داخل جدران المعابد <sup>(١)</sup> . »

والديانة الجديدة التى ينادى بها أتباع سان سيمون تهدف - كما كان يرى  
أستاذهم - إلى توحيد الإنسانية والحب والله . فالإنسانية تعيش فى نفس الوقت  
حياة زمنية موقوتة وحياة خالدة أبدية ؛ والأساس الذى يربطها بالكائن الأعلى  
هو الحب . « ولا يمكن أن ترتبط به بطريقة أخرى ما دام أن فكرة الإنسان عن  
الله ليست سوى حالة من الاعتقاد بالوحدة والنظام والتناسق <sup>(٢)</sup> . »

والدين لم يكن يتلاشى إلا فى العصور النقدية عندما كانت تفتقر إلى  
الوحدة . « أما ديانة المستقبل ، فيجب أن تكون تعبيراً عن التفكير الجمعى  
للإنسانية ، ومظهراً لجميع معتقداتها ، ونظماً لكافة تصرفاتها <sup>(٣)</sup> . »

( ١ ) نفس المرجع السابق : ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

( ٢ ) نفس المرجع السابق : ص ٤٤٣ - ٤٤٥ .

( ٣ ) نفس المرجع السابق : ص ٤٩ .

وبالرغم من أن أتباع سان سيمون قد قاموا بشرح مظاهر ديانتهم الجديدة ومصير الإنسان ، إلا أنهم لم يحددوا كيف يمكن تحقيق هذه الديانة والدعائم الاجتماعية التي تقوم عليها على وجه الدقة .

• • •

وإلى جانب ذلك فقد كانت السياسة والاقتصاد السياسي شيئين مترابطين كل الارتباط في نظر أتباع سان سيمون ، وأصبح شعارهم يقوم على أركان ثلاثة<sup>(١)</sup> .

أولاً : جميع النظم الاجتماعية يجب أن تهدف إلى تحسين المستوى الأخلاقي والجسماني والعقلي للطبقة الأكثر عدداً والأشد حرماناً .

ثانياً : جميع المزايا المكتسبة عن طريق المولد يجب أن تزول بدون أى استثناء

ثالثاً : يجب أن يمنح كل فرد بحسب قدرته ، وأن يعطى لكل قدرة حسب إنتاجها .

يرى أتباع سان سيمون أننا نعيش في مجتمع مريض ، وأن الحكومة لا قيمة لها في مثل هذا المجتمع ، « وحدث تجديد اجتماعي أصبح أمراً قريب الوقوع ، حيث لا يكون هناك محل لبقاء الإقطاع المغلوب على أمره إلا في ذكريات الناس ، لأن هذا الإقطاع قد استنفذ اليوم مقومات وجوده فلم يعد له في مجتمعنا الحاضر إلا مظهراً واحداً وهو التبطل الذي يعتبر آخر مظهر من مظاهره<sup>(٢)</sup> » .

ويجب الانتهاء من القضاء على النظام القديم ، أى القضاء على « الحق المنوح لشخص في أن يعيش عالية على أقرانه ، وحق استغلال الإنسان لأخيه الإنسان<sup>(٣)</sup> » . ويقولون إن هذا الحق الفاسد كان يعتقد أنه قد زال ،

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٦٨ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٧٢ .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ١٧٥ .

لأننا اعتقدنا أن مسألة توفير السعادة الاجتماعية للمواطنين قد حلت في اليوم الذي تحطمت فيه النظم القديمة . ولكن الذي حدث هو أننا حططنا هذه النظم القديمة دون أن نوجد ما يحل محلها . فضلا عن أن الاقتصاد السياسي أتاح نوعاً من الحرية الاقتصادية أو بمعنى آخر ترك للظروف عملية توزيع الثروة الاجتماعية<sup>(١)</sup> . فالاقتصاديون لم يراعوا في هذه الحرية « سوى توازناً بين المصالح الواجب حلها ؛ والتي يعتقدون أنها ستحل جميعاً وفقاً لقانون العرض والطلب<sup>(٢)</sup> » .

ويرى أتباع سان سيمون أن الاقتصاد السياسي لا يعترف بالأخلاق ، فالاقتصاديون يعتبرون الإنسان وسيلة في حين أن الأخلاقيين يعتبرونه غاية في ذاته . ولهذا يرون وجوب إخضاع الاقتصاد السياسي للأخلاق .

والعلاج الوحيد في نظرهم يكون عن طريق إلغاء قانون العرض والطلب ، وإلغاء البيع والشراء ؛ فهم يعتقدون أن هذه طريقة فاسدة في توزيع الإنتاج . ويستندون إلى ذلك بقوخم : أنه في داخل نطاق الأسرة ، لا يوجد أثر لقانون العرض والطلب ولا يوجد أثر لعمليتي البيع والشراء . وأنه خارج نطاق الأسرة فقط نجد أن لكل شيء نمناً ، وأن كل شيء يقدر عن طريق النقود . ولذلك فهم يرون قيام المجتمع كأ أسرة واحدة يماسك جميع أفرادها ، حيث لا يكون هناك فوائد ولا خسائر لشخص ما ؛ وعندئذ لا نجد تبرراً لقيام قانون العرض والطلب ولا نجد أثراً لعمليتي البيع والشراء<sup>(٣)</sup> .

وإتصحيح الجانب غير الأخلاقي في القانون الاقتصادي الذي يعتبر العقبة في سبيل أي تقدم اجتماعي — في نظر أتباع سان سيمون — فإنهم يرون ضرورة تحويل نظام الملكية « فالملكية يجب أن لا تظل فقط ملكية فردية ، بل يجب

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٨٤ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ١٨٥ .

HALEVY : La doctrine économique des Saint-Simoniens.

(٣)

أن تصبح ملكية اجتماعية . فسان سيمون يعتبر الأرض أداة للعمل ، حيث تكون لدواة وحدها هي المالك وحيث تقوم بتوزيع الدخل على كل فرد بحسب مقدرته حتى يتم توزيع الإنتاج على كل فرد بحسب عمله (١) .

يقول أتباع سان سيمون أنه صحيح أن التوزيع سوف يكون غير عادل ، ولكن أى توزيع عادل سوف يتضمن اعتداء أشد وعدم عدالة أكثر وضوحاً من عدم المساواة الحالية . فعدم المساواة الطبيعية هي الأساس التعلل لكل جماعة ؛ ولكن ما دام أن الجميع يعملون فالجميع موظفون . . والملكية هي هذه الوظيفة ، « فلا يعتبر الفرد مالئاً إلا عن طريق نصيبه في الزراعة أو في الصناعة . هذه الملكية لها دخل هو المرتب الذي يمنح جزاءً للعمل الذي يؤديه الشخص (٢) » . ولكن هل يمكن القول بأن السعادة التي يشعر بها الفرد نتيجة للتملك ؛ سوف تتأثر نتيجة لاشتراكية وسائل الإنتاج ؟

يقول أتباع سان سيمون أن هذه السعادة لن تتأثر ، لأن السعادة الناشئة عن التملك ما هي إلا نتيجة للارتباط بالعادات والتقاليد . وأن الزارع الذي يفلح أرضاً دون أن يملكها يجبها أكثر من ذلك الذي يملكها دون أن يفلحها . فإن الحاجة إلى التملك لم تعد عنصراً من عناصر السعادة بقدر ما هي عادة سيئة (٣) .

ولكن إلغاء الملكية معناه إلغاء حق الوراثة ، وأن الوراثة — كما نعرف — هي الرباط المادى الذى يربط الأجيال بعضها ببعض الآخر ، وأن حق الوراثة يعد من أقوى حوافز النشاط والعمل . فالأب يعرف أن سعادة ابنه هي ثمن ما يبذله من جهد وعمل ولهذا فهو يجهد ويعمل .

يقول أتباع سان سيمون رداً على هذا الاعتراض : إن الوراثة تعتبر بلا شك حافزاً قوياً على العمل حتى يومنا هذا . ولكن في انيوسم الذى يشغل فيه

(٢٠١) نفس المرجع السابق : ص ١٩٧ .

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٩٩ .

كل شخص الوظيفة التي تناسبه، وفي اليوم الذي يصبح فيه القيد الذي يربط العمال، بدلا من أن يكون قيداً حديدياً يصبح رباطاً قوامه المحبة والتعاون المتبادل، فإن العمل سوف يكون محبباً ومرغوباً فيه، عملاً يجدي فيه كل فرد السعادة والثروة والمجد<sup>(١)</sup>.

ولهذا ينبغي أتباع سان سيمون الرأي القائل بأن الرباط الأخرى سوف يتفكك مع إلغاء حق الوراثة ويردون على ذلك قائلين : « إذا كان هنا صحيحاً فهل معنى ذلك أن الذين لا يرثون ليس لهم أسرة . هل يريد أصحاب هذا الرأي إقناعنا بأن الأسرة مميزة يتميز بها الأثرياء فحسب<sup>(٢)</sup> ؟ » .

يقول أتباع سان سيمون أن حق الوراثة ليس في الغالب سوى صيباً من أسباب القوضى والتفكك ، وأن إلغاء الوراثة لا يؤدي إلى تحطيم الرباط العائلي بل على العكس سيمنحها رباطاً أقوى ويوفر بين أفرادها الحنان والتضامن الذي يقضى عليه الصراع في سبيل الحصول على الميراث بوفاة رب الأسرة وانتظار هذا اليوم الموعود بفارغ الصبر .

يقول أتباع سان سيمون : « ثقوا في كلام أستاذنا ، فاليوم الذي وعد به سان سيمون يقرب منا حيث يكون لكل فرد ميراثاً يحصل عليه ، اليوم الذي سوف يتلقى فيه كل فرد من الدولة تعليماً يتفق واستعداده ، وعملاً يتلاءم مع طبيعته وميوله<sup>(٣)</sup> . » . ويرى أتباع سان سيمون أن المجتمع يتفكك وينحل لا عندما يحكم أكثر من اللازم ، ولكن عندما يساء حكمه ، عندما يتنكر الرؤساء والقادة لمشاعر ورغبات وحاجات المواطنين . ولهذا فإن الإصلاح الواجب للمجتمع يجب أن يكون عماده إصلاح أخلاقي حيث تستبدل البرامج التعليمية القائمة بأخرى ملائمة وحيث يعتبر إصلاح الروح أجدى من الاهتمام بالمادة ، وحيث تتغير نظرة المواطنين وتحل النزعة الإنسانية العالمية محل النزعات القومية الضيقة ، وحيث يتوفر العمل لكل مواطن ، وحيث تصبح الدولة هي المالكة لكافة وسائل الإنتاج .

(١) نفس المرجع السابق : ص ١١٣ .

(٢) Exposé de la doctrine, p. : 198.

(٣) نفس المرجع السابق : ص ٢٢٣ .

## محاولات لتطبيق المذهب في مصر

في الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨٣٣ غادر الأب أنفانتان مع فريق كبير من الأتباع ميناء مارسيليا ، على ظهر باخرة تجارية تعرف باسم « ولي العهد » Le Prince héritier وعند ما صعد الأب إلى الباخرة ، أنشد الأتباع نشيد « تحية الأب » ، وقضوا ليلتهم الأولى حتى مطلع الفجر - في أناشيد وألحان سان سيمونية (١) .

قطعت الباخرة في رحلتها حتى ميناء الإسكندرية تسعة عشر يوماً ، وفي يوم الوصول رفعت الباخرة على ساريتها شعار مدرسة سان سيمون . والحق أن أنفانتان لم يكن قادراً على إدارة أى مشروع من المشروعات العامة لأنه كان قد ابتعد عن مهنته كمهندس منذ زمن طويل ، ولكن وجوده - بالرغم من ذلك - كان ضرورياً وفعالاً ، فقد كان الباعث الروحي لنشاط الأتباع أجمعين .

أسند أنفانتان مهمة التنفيذ الفعلي لمشروع قناة السويس إلى فورنل Fournel . وكان هذا الأخير يحس إحساساً كاملاً بالأهمية السياسية والاجتماعية لوصول البحرين الأبيض والأحمر ، وكان يأمل أن يؤدي تنفيذ هذا المشروع إلى تغيير كامل في عادات الأوربيين فيندفعون نحو الشرق .

وفي ١٣ يناير عام ١٨٣٤ قدم فرديناند دليسبس نائب قنصل فرنسا في مصر الأب أنفانتان والمهندس فورنل إلى محمد علي . وحاول فورنل أن يقنع محمد علي بفكرة شق قناة السويس ولكنه لم يوفق لأن هذا الأخير كان مشغولاً بفكرة إقامة قناطر النيل لتنظيم مياه الفيضان . وتحت إلهام فورنل طلب محمد علي منه أن يعرض مشروعاً تفصيلياً على المجلس الأعلى وظل فورنل يصارع في سبيل فكرته ولكن المجلس لم يأخذ بوجهة نظره وقرر إقامة القناطر (٢) .

(١) شارتي : تاريخ الحركة سان سيمونية . ص : ٢٩ .

Papier de Ch. I. AMBERT No. 7752-4.

(٢)

انهارت آمال فورنل في تحقيق فكرة الإنسانية العالمية التي كان ينشدها من وراء رحلته إلى مصر ، وصمم على العودة إلى فرنسا بعد أن كتب إلى أنفانتان يقول : « لقد جئت إلى الشرق لتنفيذ الفكرة التي ملكت عليّ شغاف قلبي ، ولكنك لم تحاول أن تغذي هذه الفكرة بجهودك <sup>(١)</sup> » . ورد عليه أنفانتان برسالة طويلة يقول فيها : « إنك تشك في أن المستقبل سوف يربط بأحداث حياتنا الأهمية التي ترتبط بها اليوم . إنني أوافقك تماماً في هذه المشاعر ، وأرجو أن تعتبر مشاركتي في مشروع القناطر كعمل صناعي بحت ، لا يرتبط بشكل قوى بفكرتنا بالهوض بالإنسانية التي نادى بها سان سيمون ونادينا بها من بعده ... إنني أستهل حياتي الصناعية بعمل في قناطر النيل إنها رسالة جنييف بالنسبة إلى <sup>(٢)</sup> ، لقد هبطت بأهداني مؤقتاً إلى مستوى المشروعات العملية العادية . . . وإنني على استعداد لأن أنتظر أجيالا إذا أراد الله ذلك حتى تتحقق رسالتنا يوماً ما <sup>(٣)</sup> » .

وأسرع أنفانتان في توحيد صفوف الأتباع حول مشروع قناطر النيل باعتبار أن العمل الصناعي المنتج يعتبر ركناً من أهم أركان الفلسفة الاجتماعية للمدرسة سان سيمونية ، وأن كافة القوى الحقيقية في المجتمع تجدها مشخصة في الصناعة وعلى هذا فإن العدالة الاجتماعية تقتضي منا تحرير الأفراد من حالة الرق والاستعباد التي يعيشون فيها ، حتى يحكمون أنفسهم بأنفسهم بدلا من أن يستمروا تابعين للطبقة الإقطاعية في المجتمع . وهذا يتمحقق عن طريق تنظيم مياه النيل وزيادة الإنتاجية الزراعية التي سوف تساعد على الاتجاه نحو التصنيع فيما بعد . وقد حاول أتباع سان سيمون أن يدخلوا فكرة الموسيقى في العمل التعاوني - تلك الفكرة التي حاول سان سيمون أن يدخلها في الصناعة ولم يتمكن من

Archives Saint-Simoniennes (Fond Enfantin).

(١)

Lettre de Fournel au Père, 1834, No. XIX, 9.

(٢) رسالة جنييف هي أول الأعمال الفكرية لزعيمهم سان سيمون .

Lettres du Père, 3 Avril 1834, Fond Enfantin, T. XXIX, 129.

(٣)

تحقيقها في حياته - فتولى روجيه Rogé أحد الأتباع المتخصصين في الموسيقى ، إعداد مقطوعات موسيقية تنزع إلى إثارة المشاعر والحماس إلى جانب الأناشيد الحماسية ومن أهم هذه الأناشيد « لاكارمانبول » و « نشيد افتتاح العمل في المعبد » . وتقوم هذه الأناشيد على تأكيد أن العمل الفردي لا قيمة له ، باعتباره إنتاجاً مفككاً لا يؤدي إلى سعادة الإنسانية وتقدمها . كما أن العمل الفردي ينزع نزعة أنانية ، في حين أن العمل الجمعي التعاوني يتجه نحو تحقيق التقدم المضطرد للجنس البشري لأنه يبغي صالح المجموع .

ويلاحظ في نشيد افتتاح العمل في المعبد ، أنهم يصبغون العمل بصبغة دينية ، أو بمعنى أصح أنهم يضيفون لوناً أخلاقياً على العمل . فيردد العمال في نشيدهم ، لقد وهبناك أيها الشعب يومنا الديني . . . يوم الأحد ، الذي كرسته المسيحية لتفريغ إلى الروحانيات . فالعمال السان سيمونيون يهبون هذا اليوم المقدس لكي يعملون فيه عملاً دنيوياً ، عملاً يزيد القدرة الإنتاجية ، ويؤدي بالتالي إلى تلبية حاجات المواطنين وسعادة البشر أجمعين .

وتهدف هذه الأناشيد إلى تأكيد ضرورة قيام وحدة إنسانية شاملة ، دون اعتبار لاختلاف ديني أو عنصري ، ويمكن أن يتحقق ذلك بالاتجاه نحو التصنيع الذي يمكن عن طريقه تزويد المجتمعات بالصفات الأخلاقية اللازمة للمجتمع المعاصر . فالعمل الصناعي بوصفه يتجه نحو تحقيق صالح المجتمع ، هو عمل أخلاقي ، بل إن عمال الصناعة - كما يقول سان سيمون - هم وحدهم الذين يتسمون بالصفات الأخلاقية التي تتفق وحاجات المجتمع المعاصر ، وأن كل من لا يعمل أو ينتج فهو محروم من الأخلاق العمالية التي تقوم على المحبة والتعاون والإخاء والبعد عن الأنانية .

ويلاحظ أن أتباع سان سيمون قد اتخذوا من الموسيقى والأناشيد وسيلة لتنمية الوعي الأخلاقي ، باعتبار أن الموسيقى أداة تعبيرية أقدر على الاستمالة من الخطب والمواظب الأخلاقية فضلاً عن أن الأناشيد وخاصة التي تحتاج إلى ترديد جمعي ،

أداة ناجحة لربط الجماعات بعضها ببعض وتوحيد الأهداف والغايات . كما أنهم اعتبروا الفنون الجميلة من تصوير ونحت ورسم بالفحم وبالزيت وغير ذلك ، جزءاً من رسالتهم للسير بالمجتمع نحو التصنيع . فجاء منهم مجموعة ممتازة من الفنانين من بينهم « ماشرو » Machereau « وأشار » Achard و « أريك » Alric ، وقد سجلوا لوحات تمتاز بالواقعية التي كانت هي قوام فلسفتهم الاجتماعية أيضاً .

وحاول أتباع سان سيمون أن يرفعوا من مستوى حياة الطبقة الكادحة وأن يثروا الابتكار والتجديد في الإنتاج ؛ فقد لاحظ أنفانان ... « أن العامل يمضي طوال عمره عاملاً على أن يرضى ذوق غيره ، فهو يعيش إذن لغيره لا لنفسه . وهو يجهد نفسه دائماً ليرضى أحط ناحية من نواحي النفس الإنسانية . . . فتكون النتيجة أن يربح المنتج أضعاف ما ينال العامل من عمله ، وبهذا يخلق جو من التطفل على صفات الإنسان مستمداً من إرضاء نزعاته الكاملة وشهواته الدنيئة ، يعيش عليهما العامل والمنتج كلاهما عيش تطفل وخمول ، لا عيش جد وابتكار حقيقي . والإنسان أينما ولى وجهه باحثاً في صور الإنتاج الصناعي لا يرى إلا هذه النزعة قائمة في كل ما تنتج اليد العاملة ، فالإنتاج اليومي عبارة عن إخراج كميات كبيرة ترضى من المستهلك أحط نزعاته ، لا عبارة عن إخراج صفات في المنتجات ترضى ذوق العامل وفيها من القيمة بقدر ما يؤخذ تلقاءها نقداً . وعلى الجملة نستطيع أن نقول بحق إن مصنوعات العصر الحاضر ( القرن التاسع عشر ) نتاج لفكرة ثابتة في رأس المنتج يدفع العامل على تنفيذها قصراً عنه ، قوامها استخدام المشاعر الدنيئة والشهوات السافلة من طريق الإغراء لا بتزاز أموال الجماهير ، والسرقة عن طريق أخذ كميات من النقد لا توازيها صفات المصنوعات المبذولة فيها <sup>(١)</sup> .

وعلى هذا اهتم أتباع سان سيمون لتوجيه الإنتاج توجيهاً يرقى بمستوى العامل

الفكرى والأخلاق ، وساهم عدد كبير منهم فى إقامة المدارس العليا فى مصر ، وحاولوا أن يوجهوا التربية وجهة اجتماعية ، باعتبار أن الهيئة الاجتماعية لا يمكن أن يتحقق لها الاستقرار والدوام إذا لم يكن لها قانون عام يحدد لأعضائها موضوع نشاط مشترك . فالحياة الفردية ليست إلا جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية ، ولهذا فإن التربية يجب أن تكون تربية اجتماعية لا ترى فى الفرد ما يفصله عن المجتمع ، بل على العكس تعمل على ضمه تحت لواء هذا المجتمع .

يرى أتباع سان سيمون أن الحب هو رابطة الحياة الاجتماعية ، وعلى الحب تقوم الحياة الاجتماعية كلها ، فالفرد لا يعيش إلا من أجل هذا الحب ، الذى إذا تمكن من تحقيقه شعر بسعادة قصوى . أما كيف يتحقق اكتشاف هذه الغاية المثلى ، وتوفيرها للمجتمع الإنسانى ، وتمكينه من الوصول إليها ، هذا هو محور تفكير أتباع سان سيمون فى التربية الأخلاقية الاجتماعية ، فهم يرون أن الرابطة العالمية التى تربط الإنسانية المفككة المتصارعة ، سوف تتحقق على أكمل وجه إذا توافر للإنسانية عنصر الحب والتفاهم ، هذا الحب هو ما أسماه أتباع سان سيمون « الديانة الحديدية » .

فالدين فى نظر أتباع سان سيمون ، ليس مجرد تفكير أو تجريد فكرى فردى بمعنى الكلمة ، أو أحاسيس داخلية منفصلة عن مجموع الأحاسيس والقواعد الخاصة بأفكار الفرد التى تتأثر بالأعمال الاجتماعية وبالحياة السياسية ، وإنما الدين هو انفجار العقل الجمعى للإنسانية بأكملها . وبالإضافة إلى ذلك فهم يرون أن التعليم كالدين يؤدي مثل ما يؤديه الدين من آثار إذا أحسن استخدامه وتوجيهه ، وقد ينحدر حتى يصبح عملاً رتيباً فيفقد بذلك معناه وطبيعته فوائده التى ترجى منه .

وتهدف التربية الاجتماعية فى مذهب سان سيمون إلى تكوين وحدة متكاملة من التفكير والثقافة « لأنه لا يمكن أن يوجد مجتمع لا يقوم على أفكار مشتركة فكل فرد يود أن يحس بالرباط الذى يربطه بالآخرين ، ذلك الرباط الذى يعد

الضمان الأكيد للوحدة المتبادلة<sup>(١)</sup> .

ومن أهم مظاهر فلسفتهم الاجتماعية استخدام الألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والاجتماعى . بل تكوين وحدة عقلية وفكرية متناسقة تدعو إلى قيام إنسانية موحدة الأهداف والغايات . ولهذا كانوا يحرصون جميعاً على ارتداء زى موحد يشمل الألوان الثلاثة التى ترمز إلى الثورة الفرنسية ، وهى الأبيض والأحمر والأزرق . فالسروال أبيض والقميص أحمر ومنديل العنق أزرق . والمعنى الاجتماعى الذى ترمز إليه هذه الألوان الثلاثة لا يتضمن فقط رمز الثورة وعلمها ، وإنما لها دلالة أخرى تعتمد على المذهب الاجتماعى للمدرسة سان سيمونية ، فاللون الأبيض عندهم هو شعار الحب ، ذلك الرباط الأصيل الذى بدونه لا يستقيم التعاون والإخاء بين المواطنين ، فهما فى نظر أتباع سان سيمون العنصرين الضرورين لكل تقدم اجتماعى . أما اللون الأحمر فيرمز إلى العمل ؛ إلى الفضيلة التى هى من ضرورات الحياة الاجتماعية فى المجتمع المعاصر . وأما اللون الأزرق فهو يعبر عن عنصر الإيمان ، ذلك العنصر الذى يعتبره أتباع سان سيمون ضرورياً للقيام بأى عمل إنتاجى وبالتالى لتوافر الإخاء والمحبة بين المواطنين . وقد نجح الفنانون من أتباع سان سيمون فى إنشاء مدرسة للرسم بالجحيزة تقوم على مبدأ الحرية النسبية . وأشاعوا شعوراً عاماً بأهمية الفن والألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والاجتماعى .

وإذا كان إنشاء مدرسة للطلب . ومدرسة للفرسان ، ومدرسة للمهندسين . وإقامة مزرعة نموذجية بشبرا إلى جانب إعداد وتنفيذ مشروع قناطر النيل . تعد أدلة واضحة لمحاولات أتباع سان سيمون فى تطبيق مذهبهم الاجتماعى رغم ما واجههم من صعوبات وعقبات ؛ فإنه لا تهمنا النتائج السياسية المترتبة على هذه المحاولات فإذا كانت محاولاتهم لشق قناة السويس قد انتهت باستيلاء فرديناند دليسيبس على كافة المعلومات والمستندات المتعلقة بالمشروع من أرليه Arlés

وأفانثان في صيف عام ١٨٤٥ ، ثم تنكرو للمدرسة السان سيمونية ، واتخاذ المشروع صورة سياسية استعمارية ، فإن هذا لا يحرم أتباع سان سيمون تفكيرهم الإنساني الذي يبدو واضحاً من تصرف أفانثان بعد أن تحقق مشروع قناة السويس فأعلن على الملأ قائلاً : « لقد كنت عجوزاً محرفاً عند ما انتابني الحزن أنه دى ليسبس الذي زوج البحر الأحمر بالبحر الأبيض ومن غير المهم أن يصادف العجوز بروسبر أفانثان خيبة أمل ، وليس من المهم كذلك أن يصدم أبناءه في آمالهم ، ولكن المهم هو أن تشق القناة وسوف تشق ، ولهذا السبب فيأني أقدم الشكر إلى دى ليسبس وأباركه (١) » .

وعلى هذا فإن محاولة تطبيق مذهب سان سيمون الاجتماعي في مصر يعد على جانب كبير من الأهمية في تاريخ التفكير الإنساني وفي تهيئة الطريق أمام فلسفة كونت الوضعية وفلسفة ماركس المادية لتجدد ضريقتيهما إلى التنفيذ والتطبيق . ومن المهم أن ندرك أنه إذا كان تطبيق المذهب الاجتماعي للمدرسة السان سيمونية قد تعرّض لظروف سياسية واجتماعية خارجية فإن هذا لا يقلل من أهمية هذه المحاولة التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ الفلسفة الحديثة .



## خاتمة

من دراستنا لفلسفة سان سيمون من جانب ولأتباعه من جانب آخر يمكننا أن نتميز الدعائم الأساسية للفلسفة السان سيمونية وهي :

الدعامة الأولى هي فكرة الإنسانية العالمية ، تلك العالمية التي لا تحدها بحار أو محيطات أو قارات ؛ عالمية تقضى على النزعات القومية وتنظر إلى المجتمع الإنساني كوحدة متكاملة لا بد من تعاون أطرافها لصالح الإنسانية جمعاء .

وقد وقع في اعتقاد أتباع سان سيمون أن وصل القارات بعضها ببعض عن طريق الممرات المائية سيترتب عليه تحقيق هذه الدعوة إلى الإنسانية العالمية . فإذا ما اتصلت الشعوب وتبدلت الثقافات وتوحدت الأهداف والغايات أمكن الوصول إلى إنسانية عالمية متكاملة .

أما الدعامة الثانية للفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية فتقوم على فكرة التصنيع . والتصنيع في نظرهم يعني العمل المنتج من كافة صورته ، والتصنيع بالنسبة لهم ليس غاية في ذاته ولكنه وسيلة إلى غاية أسمى ألا وهو الوصول بالمجتمع إلى حالة من الاستقرار السياسي والاجتماعي . فإذا ما تحقق هنا الاستقرار تلاشت مظاهر السلطة واستحالت شيئاً فشيئاً إلى مجرد أعمال الصيانة وحفظ النظام . بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فأروا أن مجتمعاً صناعياً متكاملين تكون به حاجة حتى إلى تنظيم قضائي .

ويعتقد سان سيمون وأتباعه أن العمل هو المصدر الأصيل لجميع القيم الأخلاقية . والمقصود بالعمل عندهم هو العمل الاجتماعي التعاوني من أجل المجموع ، إذ أن العمل الفردي في نظرهم لا قيمة له لأنه لا يعدو أن يكون إنتاجاً مفككاً لا يؤدي إلى سعادة الإنسانية وتقدمها ، والعمل الفردي ينزع أنانية في حين أن العمل الجمعي يتجه نحو تحقيق التقدم المضطرد للجنس البشري .

ويذهب سان سيمون وأتباعه مذهباً طريفاً في هذا المجال ، فهم يرون أن للموسيقى أثراً بعيد المدى في تنمية الإنتاج في العمل ، فضلاً عما تثيره في النفس الإنسانية من نزعات فاضلة تجعلها بمنأى عما قد يصيبها من توتر عنيف لو استغرقت في العمل الآلي الذي تميز به عصر التصنيع :

وتعتبر الموسيقى والأناشيد دعامة أساسية في المذهب الاجتماعي للمدرسة سان سيمونية حتى أن تقارير البوليس تؤكد أن الموسيقى والأناشيد سان سيمونية طالما أثارت الجماهير إثارة بعيدة المدى عميقة الأثر .

ويطيب لنا أن نتبين أهمية استخدام الموسيقى والأناشيد كدعامة للدعوة الاجتماعية . فالحقيقة أن النفس الإنسانية يستميلها كل ما يؤثر في المشاعر أو يخاطبها بطريق غير مباشر .

وقد كانت المدرسة سان سيمونية من رواد تنمية الوعي الفني والموسيقى في المواطنين ، باعتبار أن الموسيقى أداة تعبيرية أقدر على الاستمالة من الخطب والمواظب الأخلاقية ، فضلاً عن أن الأناشيد وخاصة تلك التي تحتاج إلى ترديد جمعي أداة فعالة في ربط الجماعات بعضها ببعض وتوحيد الأهداف والغايات .

أما الدعامة الثالثة للفلسفة سان سيمونية فهي التربية الاجتماعية . وهدفهم من هذا تدعيم فكرة الإنسانية العالمية عن طريق هذه التربية الاجتماعية . فسان سيمون وأتباعه يعتقدون أنه لا استقرار ولا دوام لهيئة من الهيئات الاجتماعية ما لم يكن هناك قانون عام يحدد لأفرادها موضوع نشاط مشترك . فالحياة الفردية ليست إلا جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية ، ولهذا فهم يرون أن التربية لا بد أن تكون تربية اجتماعية لا ترى في الفرد ما يفصله عن المجتمع ، بل على العكس تعمل على انصوائه تحت لواء هذا المجتمع .

يرى سان سيمون وأتباعه أن الحب هو العروة الوثقى التي ينهض عليها صرح المجتمع . فالحب هو الذي يبث الحياة في جوانب المجتمع ، والفرد لا يعيش إلا من أجل هذا الحب الذي إذا تمكن من تحقيقه أدرك السعادة التصوي ، أما

كيف يتحقق اكتشاف هذه الغاية المثلى وتوفيرها للمجتمع الإنساني وتمكينه من الوصول إليها ؛ هذا هو محور تفكير المدرسة السان سيمونية في التربية الأخلاقية الاجتماعية . فسان سيمون وأتباعه يرون أن الرابطة العالمية التي تربط الإنسانية المنشقة على نفسها والتي احتدم الصراع بين أبنائها ، هذه الرابطة سوف تتحقق على أكمل وجه إذا توافر للإنسانية عنصر الحب والتفاهم . هذا الحب هو ما أسماه سان سيمون « بالديانة الجديدة » .

فالدين في نظر سان سيمون وأتباعه ليس مجرد تفكير أو تجريد فكري بمعنى الكلمة أو أحاسيس داخلية منفصلة عن مجموع الأحاسيس والقواعد الخاصة بأفكار الفرد التي تتأثر بالأعمال الاجتماعية وبالحيات السياسية . وإنما الدين هو ثمرة طيبة لما يقوم بين أفراد المجتمع من تعاون وتضافر ومحبة وإخاء .

ويرى سان سيمون وأتباعه أن التعليم كالدين يؤدي مثل ما يؤديه الدين من آثار إذا أحسن استخدامه واستقام توجيهه ، وقد ينحدر إلى عمل رتيب فيفقد بذلك معناه وتضيق الفوائد التي ترجى منه .

وتهدف التربية الاجتماعية عندهم إلى تكوين وحدة متكاملة من التفكير والثقافة ، لأنه لا يمكن أن يوجد مجتمع لا يقوم على أفكار مشتركة ، فكل فرد يود أن يحس بالرباط الذي يربطه بالآخرين ، ذلك الرباط الذي يعد الضمان الأكيد للوحدة المتبادلة .

ويلاحظ أن للفلسفة الاجتماعية للمدرسة السان سيمونية جانباً سياسياً . فهي تهدف إلى قيام الجمهورية كأساس للحكم في مجتمع صناعي . والنظام الجمهوري في نظرهم أداة من أدوات التربية الاجتماعية للحاكم ، ووسيلة للوصول إلى قيام حكومة تلتقي على عاتق المواطنين أخف الأعباء . هذه الحكومة التي توفر الحياة الحرة الكريمة لكل مواطن دون أن تعمل على استغلاله ، ودون أن تتيح من النظم الاجتماعية ما يدفع الإنسان إلى استغلال أخيه الإنسان ، لا تتسق طبيعتها مع النظم الملكية الوراثية . ولهذا فإن قيام جمهورية استبدادية ركن هام من أركان فلسفتهم الاجتماعية .

ويلاحظ أن للمرأة في المذهب سان سيموني مكانة مرموقة وأهمية بارزة . وسان سيمون وأتباعه يعتقدون أن المرأة يجب أن ينظر إليها كمنظير متكافئ مع الرجل في تكوينه العقلي والخلقي . بل إن سان سيمون نفسه يرى أن يستند إليها الوظائف العامة في الدولة وأن لا يقتصر نشاطها على نطاق الأسرة . ويذهب سان سيمون إلى إمكان اختيار المرأة في مجلس نيوتن وهو مجلس العلماء الذي يدير شؤون الإنسانية ويعمل على إخضاع السياسة والأخلاق للملاحظة وإدخالهما ضمن العلوم المجردة .

ومن المهم أن نقف على النتائج التي أمكن لنا عن طريق هذا البحث أن نقدمها للتفكير الاجتماعي المعاصر :

أولاً : أن شق قناة السويس قام في أساسه على مبادئ فلسفية واجتماعية تهدف إلى قيام العالمية عن طريق وصل القارات بعضها ببعض . وأن تحول المشروع إلى عمل سياسي استعماري لم يكن الغاية التي كان يهدف إليها أتباع سان سيمون .

ثانياً : إن الحركات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المعاصرة تتركز على الفلسفة الاجتماعية للمدرسة سان سيمونية . وبهذا يمكننا أن نعد بحق أتباع سان سيمون من آباء الاشتراكية الحديثة .

والماركسية في ذاتها ما هي إلا تطبيق للفلسفة سان سيمونية مع الالتجاء إلى القوة والعنف في تحقيق أهدافها ، بعكس ما كانت ترمي إليه الفلسفة سان سيمونية . كما أن حركة التسلح الخلقى التي سادت أوروبا في أوائل هذا القرن ما هي إلا محاولة لتقليد الفلسفة سان سيمونية في قيام حياة أخلاقية فاضلة تقوم على العمل والإنتاج المثمر .

وفي هذه الأيام نجد أن حركة التعايش السلمي التي تنادي بها كتلة الدول الإفريقية الآسيوية تتركز في جوانب كثيرة منها على الفلسفة الاجتماعية للمدرسة سان سيمونية .

ثالثاً: إن حقوق المرأة ومساواتها بالرجل قد بدأت تتأكد مع ظهور الحركة السان سيمونية بل إنه يمكن أن نقرر حقيقة هامة وهي أن اهتمام سان سيمون وأتباعه من بعده بمنح المرأة حقوقاً مساوية للرجل كانت الخطوة الأولى بل الدعامة الأساسية للنهضة الحالية للمرأة وإلى ما وصلت إليه من حقوق وامتيازات سياسية واجتماعية .

رابعاً: تعد الحركة السان سيمونية أولى الحركات الاجتماعية التي حاولت النهوض بالمجتمع من جميع جوانبه فاستخدمت أساليب خاصة في الفن والموسيقى والطب غايتها العناية بالنوع الإنساني بأكمله لا بالمواطنين كأفراد فحسب .

• • •

وإذا كان قد واجه تطبيق الفلسفة السان سيمونية في مصر الكثير من العقبات أو أصابه الفشل ، فإن كل منصف لا يسعه إلا أن يقر بنجاح هذه الدعوة وخاصة إذا أدخلنا في الاعتبار أن أتباع سان سيمون يستهجنون أساليب العنف والقوة وتغيير النظم القائمة في مجتمع من المجتمعات قسراً كما اتجهت فلسفة كارل ماركس فيما بعد .

ويمكنني القول – في ختام هذا العرض – أن الحكم الصادق على حركة فكرية اجتماعية لا يمكن أن يكون مقياسه النجاح أو الفشل في التطبيق وإنما يكون مقياسه الإيمان والإخلاص والجرأة في محاولة هذا التنفيذ ، وهذا ما توفر بصورة كاملة لدى أتباع سان سيمون .